

المحور الأول: العمران

التطور العمراني لمدينة تلمسان الإسلامية:

دراسة في النصوص الخاصة بـ :

أغادير، تاكرارت، المنصورة

الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه

عميد كلية التربية/جامعة الموصل

جمهورية العراق

(1)

إن طبيعة مداخلتنا تتطلب التركيز على النصوص الخاصة بأغادير وتاكرارت والمنصورة. ولكن سياق البحث لا يمكن أن ينفصل عن مدينة تلمسان التي ضمت هذه المدن جميعاً. وعلينا تتبع الوجود التاريخي لهذه المدن، مع الأخذ بنظر الاعتبار آراء بعض الكتاب المحدثين. حيث يشير محمد الطمار،⁽¹⁾ أن البربر أطلقوا اسم "أفادير" على مدينة (بومارية)، بعد أن نجحوا في تقويض نفوذ الرومان والوندال والبيزنطيين، و"أفادير" تعني بالعربية: "جدار قديم" و"مدينة محصنة". ويشير المعنى الأول إلى أنها مدينة قديمة أزلية. في حين نفهم من المعنى الثاني، أن "أفادير" كانت مدينة "لكنها تغيّر المدن المبثوثة حينئذ في ذلك الأقليم. فلا شك أنها كانت مصراً بالنسبة إليها وكانت محصنة كأنك بها قلعة يحيط بها الأسوار والأبراج المنيعة". وبعد هذا التوضيح يقول الطمار مباشرة: "ثم سُميت المدينة (تلمسان)". في حين يقول باحث متميز آخر،⁽²⁾ أن "تلمسان في إسلامها كانت تُسمى بأجادير"، وهي كلمة بربرية تعني الصخرة، والمتمعن في موقعها يدرك أصل التسمية: فمحيطها كتل حجرية، ومنشأها تقوم على كتلة صخرية.

ومن الملاحظ أن غالبية الجغرافيين والمؤرخين المسلمين يُطلقون اسم تلمسان على هذه المدينة.⁽³⁾ وهذه الكلمة أيضاً بربرية الأصل، وهي مركبة، كما يقول

1- تلمسان عبر العصور: 12.

2- عبد العزيز لعرج، "مجموعة المنشآت العمرانية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد في تلمسان"، مجلة دراسات تراثية، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، الجزائر/معهد الآثار، العدد 2، السنة 2008، 51.

3- ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي-

يحيى بن خلدون،⁽¹⁾ "من تلم ومعناه تجمع، وسان معناه اثنان، أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الآبلي رحمه الله، وكان عارفاً بلسان القوم. ويقال أيضاً تلشان، وهو أيضاً مركب من تل ومعناه لها، وشان، أي لها شأن عظيم...". وقد نقل المقرئ،⁽²⁾ ويؤكد ابن الخطيب،⁽³⁾ المعنى ذاته، حينما وصفها بأنها: "مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شـريف". أما عبد الرحمن بن خلدون،⁽⁴⁾ فيشير في معرض شرح اسمها، إلى أنه "في لغة زناتة مركب من كلمتين؛ تلم سان ومعناها تجمع اثنين يعنون البر والبحر". ويسمى كل من ابن خرداذبة،⁽⁵⁾ وابن الفقيه الهمداني،⁽⁶⁾ بـ "مدينة تلمسين"، وهي بنفس المعنى، لأن كلمة "تلمست" وجمعها تلمسين وكلمة تلمست وجمعها تلمسان، ومعناها واحد هو لأرض تنعم بالمياه والأعشاب والأشجار".⁽⁷⁾ ولهذا فإن محمد الطمار، يرى بأن لفظة (تلمسان) لا تطلق على المدينة التي تُعرف عند أهلها بـ "أفادير"، وإنما على هذا النوع من المدن الواقعة في حوض أرض تحيط بها الجبال وتنعم بالمياه والأعشاب والأشجار. وهو يرى أيضاً، بأن اسم (تلمسان) يوافق المسمى، كما وافقها اسم (بومارية) في عهد الرومان. "فإن كلمة تلمسان وكلمة بومارية متقاربتان من حيث المعنى، فتلمسان غوطة عند الرومان والبربر معاً، تضمها الجبال شرقاً وجنوباً وغرباً، ويرسل إليها البحر شمالاً نسيمة

=غوبة، ليدن، مطبعة بريل، 1906: 247؛ الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، 102: مؤلف مجهول. الخلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار و عبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979: 186؛ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، 176.

1- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر محمد بن خلدون، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، مطبعة بيبرفونطانا الشرقية، 1904-1909: 1/9.

2- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 134-133/7.

3- لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق، محمد كمال شبانة، المحمدية (المغرب)، مطبعة فضالة، 1976: 184-183.

4- العبر: 7/76.

5- أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك، نشر، دي غوبة، ليدن، 1889: 88.

6- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني، كتاب البلدان، تحقيق، يوسف الهادي، ط2، بيروت، عالم الكتب، 2009: 133.

7- ينظر: الطمار، المرجع السابق، 13.

المنعش، ويجود عليها بندااه النافع⁽¹⁾.

ويتفق معظم الجغرافيين والمؤرخين المسلمين الذين تطرقوا إلى ذكر هذه المدينة في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي وما بعده، إلى أنها كانت مدينتين في مدينة واحدة، يفصل بينهما سور⁽²⁾، أو أنهما "مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة"⁽³⁾، أو أنهما مدينتين بينهما شوط فرس⁽⁴⁾، ويذكر محمد العبدري⁽⁵⁾ الذي زارها في سنة 688هـ/1289م بأنها "مدينة كبيرة سهلية جبلية المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور". ويشير يحيى بن خلدون⁽⁶⁾ إلى أن تلمسان "مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد". وهذا الكلام في عهده (تاريخ وفاته 780هـ/1378م). كذلك يقول الحميري⁽⁷⁾ المتوفى في نحو سنة 710هـ/1310م، بأنها "مدينتين في واحدة". وهم يقصدون جميعاً اندماج مدينتي أغادير، وتكرارت، بعد بناء الأخيرة في عهد المرابطين، كما سنرى في المباحث الآتية.

(2)

إذا ما عدنا إلى لفظة أغادير، أكادير، أجادير، أفادير، التي أطلقها البربر على بومارية القديمة، وسلمنا بأن "تلمسان في اسلامها كانت تسمى بـ (أجادير)"⁽⁸⁾، نجد أن أول اتصال للمسلمين بهذه المدينة، كان في عهد والي إفريقية أبي المهاجر دينار (59-55هـ/678-675م)، الذي نهض إلى المغرب ونزل عند عيون بالقرب من تلمسان، أضحت تُعرف من ذلك الحين بعيون أبي المهاجر، حيث ظفر بالقائد البربري كُسيْلَة بن لزم الأوربي، وعرض عليه الإسلام

1- المرجع نفسه : 14 .

2- الإدريسي. المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق: 100 .

3- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان. بيروت. دار صادر. 1977 : 2/44.

4- عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير

5- محمد العبدري البلنسي. الرحلة المغربية. تحقيق. أحمد بن جدو. الجزائر. نشر كلية الآداب الجزائرية (د.ت)

9:

6- بغية الرواد: 1/20 .

7- الروض المعطار: 135 .

8- لعرج.

فأسلم.⁽¹⁾ ولكن المصادر لا تفيدنا عن أي إنشاءات أو أعمال عمرانية في المدينة. كذلك الأمر بالنسبة إلى عبد الرحمن بن حبيب، صاحب إفريقية، الذي تقدم إلى مدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، ودار مملكة زناتة سنة 135هـ/752م⁽²⁾. ولكن التطور العمراني الأول للموس الذي أصاب أغادير الإسلامية، حصل بعد وصول إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) إليها، فاراً من المشرق، بعد فشل حركة العلويين ضد الخليفة العباسي موسى الهادي ابن أبي جعفر المنصور سنة 169هـ/785م. فدخل أغادير قادماً من القيروان مع مرافقه راشد، واستراحا بها ثلاثة أيام، ثم ارتحلا عنها إلى المغرب الأقصى. ولما تمت سيطرة إدريس الأول (177-172هـ/793-788م) على المغرب الأقصى، خرج في سنة 173هـ/789م، إلى مدينة أغادير، فأتاه أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري، فطلب منه الأمان، فأمنه إدريس، وبايعه محمد بن خزر وجميع من معه في المنطقة من قبائل زناتة. فدخل إدريس المدينة صلحاً وأمن أهلها.⁽³⁾ ومكث فيها عدة أشهر، قام فيها بأعمال عمرانية هي الأولى من نوعها في المدينة في العصر الإسلامي. فقد بنى فيها مسجداً، وأتقنه، كما يشير إلى ذلك ابن أبي زرع الفاسي،⁽⁴⁾ وصنع فيه منبراً، وكتب عليه:

”بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في صفر سنة أربع وسبعين ومئة“.

ويشير محمد الطمار،⁽⁵⁾ إلى حفريات تمت بجوار صومعة ”أفادير“ أفادت

1- ينظر: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي. كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية. تحقيق: بشير البكوش. بيروت، دار الغرب الإسلامي. 1983: 1/33؛ ابن عذاري. البيان المغرب: 1/28-29.

2- المصدر نفسه: 1/65.

3- علي بن أبي زرع الفاسي. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة. 1973: 18-19؛ وينظر: علي الجزناني. جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس. تحقيق: عبدالوهاب بن منصور. الرباط، المطبعة الملكية. 1967: 14؛ عبد الرحمن الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. بيروت، دار الثقافة. 1980: 1/183.

4- الأنيس المطرب: 21؛ ابن خلدون. العبر: 7/76.

5- تلمسان عبر العصور: 30، هامش رقم (3).

بأن محراب المسجد كان يقابلها، وأن الجدران كانت متفاوتة في الطول. فللجدار الشمالي 48 متراً، وللجنوبي 42 متراً، وللقبلي 39 متراً، وللغربي 45 متراً، وكلها كانت مبنية بالحجر المنحوت. ولاشك أن هذه الأحجار كانت رومانية، لاسيما وأن بومارية كانت محصنة بالأسوار. وحين زيارة اليعقوبي (ت284هـ/897م) لمدينة أغادير، أشار إلى وجود سور مبني من الحجارة يحيط بهذه المدينة، وخلفه أيضاً سور آخر من الحجارة، وبها قصور ومنازل مشيدة، ربما كانت أيضاً من الحجارة.⁽¹⁾ ولكن ابن حوقل (ت367هـ/977م)، الذي زارها بعد اليعقوبي بنحو ستين عاماً، أشار إلى أن "لها سور من آجر حصين منيع"،⁽²⁾ ولم يذكر السور الثاني. وهذا الاختلاف بين الرجلين يوضحه محمد الطمار،⁽³⁾ بأنه ناجم عن أن ما رآه اليعقوبي مشيداً بالأحجار هو ما بقي من أسوار (بومارية)، لأن الرومان كانوا يستعملون الحجر في بنائهم. وأن هذه الأسوار قد بليت وتصدعت، أو تهدم بعضها من جراء الاضطرابات والفتن التي تعرضت لها المدينة في مختلف العصور، فقام أهلها ورموها، أو جددوها مستعملين الآجر الذي كان متوفراً باغادير، ويقوم الفخارون بصنعه.

أما التطور العمراني الثاني الذي حصل في أغادير الإسلامية، فقد حصل أيضاً في عهد الدولة الإدريسية. وحدث ذلك في عهد إدريس الثاني (-177/213هـ/793-828م)، الذي خلف والده إدريس الأول في الحكم. فقد توجه إلى تلمسان في شهر المحرم من سنة 199هـ/814م، فدخلها "ونظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها، وصنع فيه منبراً".⁽⁴⁾ ويضيف علي الجزنائي،⁽⁵⁾ الذي ينقل عن ابن أبي زرع بالقول أنه "أصلح أسوارها وجامعها الذي بأكدير، وصنع فيه منبراً وكتب اسمه فيه". وقد ظل هذا المنبر شاخصاً إلى منتصف القرن السادس

1- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي. كتاب البلدان. منشور مع كتاب: الأعلام النفيسة لابن رسته. نشر دي غوبية. ليدن. مطبعة بريل. 1892 : 356 .

2- ابن حوقل. صورة الأرض : 88 .

3- تلمسان عبر العصور : 14 - 15 .

4- ابن أبي زرع. المصدر السابق : 50 .

5- جني زهرة الآس : 27 .

للهجرة/ الثاني عشر الميلادي، حيث رآه المؤرخ المغربي أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق سنة 555هـ/1160م، ودوّن في كتابه المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس، ملاحظته عنه، والتي نقلها علي الجزنائي بقوله: ⁽¹⁾

”قال الوراق في مقباسة: دخلت جامع تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسة، فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سُمّر هناك. وعليه مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة“.

ويشير ابن أبي زرع،⁽²⁾ إلى هذا النص ذاته، لكن السنة ترد عنده مصحفة إلى ”خمس وخمسين ومئتين“، وهو خطأ، لأن عبد الملك بن موسى الوراق من رجال القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي.⁽³⁾ ويؤكد عبد الرحمن بن خلدون،⁽⁴⁾ أن أعمال إدريس الثاني العمرانية في مسجد أغادير، ما هي إلا تجديد المسجد الذي بناه والده، وإصلاح لمنبره. وقد استغرقت إقامة العاهل الإدريسي في أغادير نحو ثلاث سنوات، قضاها في تنظيم شؤونها الإدارية، وأحوالها بشكل عام.⁽⁵⁾

وقد تطورت هذه المدينة بمرور الزمن، حتى أضحت في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، من المدن التي يشار إليها بالبنان. ففي هذا القرن وصفها الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1094م)،⁽⁶⁾ وذكر ما توفر لها من ازدهار، وقال بأنها مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، ولها

1- جني زهرة الآس: 27.

2- الأئيس المطرب: 50.

3- ينظر عن تفصيلات هذا الموضوع. وترجمة عبد الملك بن موسى الوراق عند: عبد الواحد دنون طه. ابن عذاري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي. بيروت. دار المدار الإسلامي. 2004: 168 - 170.

4- العبر: 7/76.

5- إسماعيل العربي. دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. بيروت. دار الغرب الإسلامي. 1983: 118.

6- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب: 76؛ وينظر أيضاً: شارل أندريه جولييان. تاريخ إفريقية الشمالية.

تعريب محمد مزالي والبشير بو سلامة. تونس. الدار التونسية للنشر. 1985: 2/201.

خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة؛ باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة، وباب العقبة في الشرق، وفي الغرب باب أبي قرّة. كذلك أشار إلى وجود بقية من النصارى إلى عصره، وأن لهم بها كنيسة معمورة.⁽¹⁾ "ولكن هؤلاء النصارى الذين رأهم البكري"، كما يعلق محمد الطمار،⁽²⁾ "لم يبق لهم أثر في المجتمع التلمساني، فقد ذابوا في الجماعة بتوالي الأيام، أو غادروا أفادير". وقد ظلت هذه المدينة تحتفظ ببعض الآثار القديمة الرومانية إلى عهد البكري، ومنها قناة كانت تجلب المياه من عيون تسمى (لوريطة)، بينها وبين المدينة ستة أميال. وتتوفر في المدينة أسواق، ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار، وأثمار عليها الطواحين، وهو نهر سطفسييف. ويؤكد البكري،⁽³⁾ على أنها كانت في عهده قاعدة المغرب الأوسط، ودار مملكة زناتة، وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق.

ولا تزال بعض منشآت بني عبد الواد باقية إلى اليوم في أغادير، فقد أعاد يغمراسن بن زيان (681-633هـ/1283-1236م) بناء صومعة مسجد أغادير،⁽⁴⁾ وهي التي تُشرف على المسجد الذي بناه الأدارسة. وتتكون من برج من الآجر مربع ضلعه يساوي أربعين متراً، وشكله تقليدي أنيق. وهي مقامة على أسس أخذت حجارها من أطلال بومارية الرومانية، وتزين واجهاتها الأربع أعمدة صغيرة، وأطر مزخرفة بأزهار من فخار مطلبي.⁽⁵⁾ وتعد هذه الصومعة وأختها في المسجد الكبير بتاكرارت من أجمل ما بقي لنا من الآثار الزيبانية في تلمسان، فكلتا الصومعتين مثيلة لما سبقها بالأندلس من حيث زخارف الواجهات، ورشاقة الجدران.⁽⁶⁾

1- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : 76 .

2- تلمسان عبر العصور : 42 .

3- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : 76 .

4- ينظر: يحيى بن خلدون. بغية الرواد : 1/116 : محمد بن عبد الله التنسي. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان. مقتطف من : نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تحقيق. محمود بوعباد. الجزائر. إصدار المكتبة الوطنية. 1985 : 125 .

5- جوليان. المرجع السابق : 2/209 .

6- الطمار. المرجع السابق : 97 .

(3)

بعد قيام الدولة المرابطية، منح الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (453-500هـ/1061-1107م) في السيطرة على أغادير، وانتزاعها من صاحبها يومئذ الأمير المغراوي يحيى من بني خزر، وذلك في سنة 473هـ/1080م. واختط الأمير يوسف بن تاشفين في النجد الذي عسكر فيه بالجانب الغربي من أغادير، مدينة جديدة أطلق عليها اسم تآكرارت، أو تآقرارت، وهذا الاسم يعني "المحلة باللسان البربري".⁽¹⁾ أما يحيى بن خلدون،⁽²⁾ فيسميها بـ "تجارت"، وهو كما يقول أيضاً، "اسم المحلة بلسان زناتة". ولكنه يحدد تاريخ البدء بإنشائها خطأً بسنة 462هـ/106م. وقد ضرب المرابطون سرادقاتهم وخيامهم فيها، ولكن سرعان ما استحوطت هذه السرادقات والخيام إلى دور، كما بنى فيها المرابطون قصراً نزل به أولوا الأمر، وسكنه بعدهم الموحدون أيضاً.⁽³⁾ وقد بنى يوسف بن تاشفين سوراً لهذه المدينة الجديدة، عند باب القرمدين وما يليه، وإن لم يتحقق بعد نسبة هذه الآثار المبنية بالطابية إلى عصر يوسف بن تاشفين.⁽⁴⁾ الأمر الذي يشير إلى اعتقاد البعض بأن المرابطين لم يسوروها، وهذا الرأي لا يستقيم، فكيف يمكن أن يبقونها بدون سور، وقد كان يسكنها "الجنود، أصحاب السلطان"،⁽⁵⁾ ولهم بالمنطقة أعداد. لهذا فإنها كانت مسورة، وسورها مبنياً بالطابية، مثل سائر الأسوار المرابطية في المغرب الأقصى.⁽⁶⁾

بنى المرابطون المسجد الجامع بجوار القصر في قلب المدينة الجديدة تآكرارت قرب القيسارية والأسواق الأخرى. وقد مرّ بناء هذا المسجد بعدة مراحل؛ الأولى

1- ابن خلدون. العبر: 7/46.

2- بغية الرواد: 1/20، 86.

3- الطمار المرجع السابق: 47.

4- ينظر رأي الأستاذ تيراس. الذي ينقله السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي.

الإسكندرية. مؤسسة شباب الجامعة، 1982: 678. نقلاً عن:

Terrasse, H. L'art de L'empire almoravide, et son evolution dans Studia Islamsica, t. III, 1955. p. 13.

5- ينظر: ياقوت. المصدر السابق: 2/44.

6- الطمار المرجع السابق: 48.

عند بنائه على أيام يوسف بن تاشفين سنة 475هـ/1082م، والثانية في سنة 530هـ/1135م، عندما رُممه علي بن يوسف (500-537هـ/1107-1143م)، وزينه بالزخارف الرائعة التي يزدان بها، لاسيما في وجه المحراب، وجداره، والبالطة الوسطى. أما المرحلة الأخرى (الثالثة)، فهي، كما يعتقد الأستاذ مارسيه، ⁽¹⁾ الإضافة التي تمت في عهد يغمراسن بن زيان. وتتمثل ببناء القسم الشمالي من مسطح قاعدة الصلاة، بما في ذلك القبة الثانية والصحن والمئذنة، التي تمتاز بعزري يخالف عزري كل مآذن المرابطين والموحدين والمرينيين. ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة سبعين متراً. ⁽²⁾ وقد أضيف لهذا المسجد بعد يغمراسن خزانة تضم كتاباً مختلفة: الأولى في سنة 1359م (761هـ)، والثانية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (العاشر للهجرة). وهذا يدل على أن بناء جامع تلمسان قد مرّ بمراحل شتى. ⁽³⁾ ويعتقد السيد عبد العزيز سلم، ⁽⁴⁾ أن بيت الصلاة كان قائماً في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، بقبتيه اللتين ترتفعان في أعلى بلاطة المحراب، وأن مهندس هذا الجامع تأثر في بنائه ببناء جامع قرطبة من هذه الناحية "وفي هذه الحالة تصبح أعمال بني عبد الواد مجرد ترميمات لبناء كان قائماً بالفعل منذ أيام علي بن يوسف". ⁽⁵⁾ ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل ما جاء من نصوص بشأن المئذنة بالذات، فقد أشار كل من يحيى بن خلدون، ⁽⁶⁾ والتنسي، ⁽⁷⁾ إلى أن يغمراسن بن زيان هو الذي بنى الصومعتين بالجامعين الأعظمين في أغادير وتاكرارت. وعندما سئل أن يكتب اسمه عليهما: "فقال بالزناتية يسنت ربي، أي علمه الله علوهمة وحسن ظن بالخالق وإعراضاً عن

1- 197 p. Marçais, L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.

نقلاً عن : سالم. تاريخ المغرب في العصر الإسلامي: 665.

2- الطمار. المرجع السابق: 49.

3- المرجع نفسه: 49.

4- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي: 665.

5- ينظر حول هذا الموضوع أيضاً: جولييان. تاريخ إفريقيا الشمالية: 2/209 الذي يظن بأن صومعة المسجد بنيت في حقبة سابقة لعهد يغمراسن.

6- بغية الرواد: 1/116.

7- تاريخ بني زيان: 125.

التفاخر الدنيوي⁽¹⁾ ويشير التنسي⁽²⁾ إلى هذه الرواية، وامتناع يغمراسن عن كتابة اسمه، بأنه أبي وقال: "علم ذلك عند ري".

ومسجد تآكرارت بتلمسان هو الوحيد الذي بقي على شكله الأصلي بوجه عام من آثار المرابطين. تبلغ مساحته نحو ثلاثة آلاف متر مربع.⁽³⁾ وهو بناء مستطيل الشكل، طوله من الشمال إلى الجنوب 60 متراً، وعرضه من الشرق إلى الغرب 50 متراً. ويتألف المسجد، بحسب وصف محمد الطمار:⁽⁴⁾

"من بيت للصلاة وصحن مربع تتوسطه فوارتان، وتكتنفه من الجهة الغربية مجنبة تتألف من أربع بلاطات، أما المجنبة الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتداداً لبلاطات بيت الصلاة. ويشتمل البيت على 12 بلاطة عمودية على جدار القبلة، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم. وهذه الصفوف من الدعائم تقسم مسطح القاعة إلى 6 أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب... والبلاطة الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى على النحو المتبع في مساجد المغرب الأقصى وقرطبة، ويقطع سطحها قبتان: واحدة منهما تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى. أما القبة الثانية فتتقدم المحراب، وهي آية من الفن الأندلسي المغربي. فهي من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة. يقوم من قاعدة القبة 12 عقداً تتقاطع فيما بينها تاركة قبيبة مقرنصة. والفراغات الناشئة من تقاطع العقود تزدان بتوريقات مفرغة في الجص وتدخلها شمسيات صغيرة. والكل يؤلف منظراً رائعاً يذكرنا بقباب جامع قرطبة، فلا شك أنها من صنع نحّاتين أندلسيين. والطابع الأندلسي يظهر جلياً كذلك في المحراب، فإنه كثير الشبه بمحراب جامع قرطبة في شكل قوسه، وفي النقوش التي تعلو

1- يحيى بن خلدون. بغية الرواد: 116.

2- تاريخ بني زيان: 125.

3- إبراهيم حركات. المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء. دار الرشاد الحديثة. 1984: 1/223. سلامة محمد سلمان الهرقي. دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين/دراسة سياسية وحضارية. بيروت. دار الندوة الجديد. 1985: 375.

4- تلمسان عبر العصور: 48-49. ويقارن: عبد القادر الريحاوي. قيم عالية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني. دمشق. منشورات وزارة الثقافة. 2000: 2/413.

هذا القوس، وفي سقفه الذي هو على صورة محارة مقسمة إلى فصوص زخرفية ... وكان للمسجد مقصورة تم بناؤها في رمضان سنة 533هـ/آب (أوات) 1139م في عهد علي بن يوسف. وكان هذا الملك يُصلي داخل هذه المقصورة ... وقد بليت هذه المقصورة وأزيلت، ونجد أثرها في المتحف البلدي“.

وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، عثر الراهب بارجيس على نقش في محراب هذا الجامع كتب فيه: ⁽¹⁾

”بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً. هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيّد الله أمره وأعزّ وأدام دولته. وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل، ابن الحسن بن عبي بن عبد الرحمن بن علي، أدام الله عزّه، ثم انتهى في جمادى الآخرة عام 530هـ“.

وهذا يدل، كما يرى إبراهيم حركات، ⁽²⁾ بأن علي بن يوسف هو باني المسجد، ولكننا نؤيد اعتقاد محمد الطمار، بأن هذا التاريخ ما هو إلا تاريخ ترميم المسجد وتزيينه في عهد علي بن يوسف، ليساير مساجد عصره. لأن المسجد كان قد شُيّد في العهد الذي لم يدخل فيه بعد التيار الفني الأندلسي إلى المغرب، أي قبل أن يستولي يوسف بن تاشفين على الأندلس. ⁽³⁾

وبعد سيطرة الموحدين على تلمسان سنة 539هـ/1144م، خرج المرابطون من تآكرارت، بعد أعمال القسوة والقتل التي نفذها الموحدون بأهالي هذه المدينة. وقد حاول عبد المؤمن بن علي (524 - 558هـ/1130 - 1163م) أن يمحو اسم باني المسجد الذي ورد في النقش أعلاه، ويضع اسمه مكانه، ويبدو

1- L'Abbé (J.J.L) barges, Tlemcen Ed. Benjamen Duprat et Challamel Aîné - Paris, 1859. PP.435- 437

- نقلاً عن : حركات ، المرجع السابق : 1/224 .

2- المرجع نفسه : 1/224 .

3- الطمار ، المرجع السابق : 48 ،

أن ذلك لم يتحقق.⁽¹⁾ ولا يجوز أن يفهم من نص ابن أبي زرع:⁽²⁾ "أنه أمر ببناء سور تكرارات من تلمسان وتحصينها وبناء جامعها" على أنه ابتداء ذلك من نقطة الصفر. فهو قد قام بترميمات للأسوار وتجديد للمسجد فقط. ويدعو أن الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي، قد أدرك خطأ سياسة القتل والعنف مع أهالي تكرارات، وابتداءً بمراجعة رأيه في إعمارها، كسباً لثقة سكانها، وسكان المغرب الأوسط عامة. ويعبر عبد الرحمن بن خلدون عن هذا الموقف في نص واضح بقوله:⁽³⁾

"ولما غلب عبد المؤمن لتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان، بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك في أعوام أربعين من المائة السادسة. ثم راجع رأيه فيها، وندب الناس إلى عمرائها، وجمع الأيدي على رم ما تنلم من أسوارها... ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم... وصرف ولادة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها، إلى تحصينها وتشديد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرائها، والتناغي في عمرائها واتخاذ الصروح والقصور بها، والاحتفال في مقاصد الملك، واتساع خطة الدور. وكان من أعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف، ووليها على سنة ست وخمسين على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن، واتصلت ولايته فيها، فشيّد بناءها، وأوسع خططها، وأدار سياج الأسوار عليها. ووليها من بعد السيد أبو الحسن أبي الحفص بن عبد المؤمن وتقبل فيها مذهبه".

وقد أكمل هذا الوالي ترميم الأسوار وتحصينها سنة 566هـ/1170م⁽⁴⁾. ولم يركز الموحدون اهتمامهم على الأسوار والقصور والصروح حسب، بل

1- L'Abbé J.J.L. Bargés, Op. Cit, pp435-436 .

نقلاً عن : حركات . المرجع السابق: 1/224 .

2- الأنييس المطرب: 263 .

3- العبر: 78 - 7/77 .

4- يحيى بن خلدون. بغية الرواد : 1/21 .

أهم رتبوا فيها أيضاً مخازن الحبوب الضرورية لحفظ الإنتاج الزراعي من الحنطة والشعير وغيرها. ويعبر عن ذلك ابن عذاري المراكشي،⁽¹⁾ في النص الذي يشير إلى هذه الحقيقة بالتعبير العامي المغربي بقوله: "ودخلها الموحدون فرتبوا مروسها". والمروس، جمع (مرس)، وهي من عامية المغرب، وتعني مطامير الحبوب وغيرها⁽²⁾.

وقد نمت مدينة تآكرارت على حساب سابقاتها أغادير، وضممتها إليها في آخر الأمر، وصار الاثنان، كما يقول عبد الرحمن بن خلدون،⁽³⁾ بلداً واحداً. ثم ازدهرت حضارتها، وتألفت عندما أصبحت قاعدة للدولة بني زيان أو بني عبد الواد (633-962هـ/1235-1554م)، وتوسعت، حتى بلغ عدد منازلها في عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن موسى (718-737هـ/1318-1337م) ستة عشر ألف منزل، حسب رواية الحسن الوزان.⁽⁴⁾ وما كان لمؤسس هذه الدولة، يغمراسن بن زيان، أن يكتفي بقصر تآكرارت القديم، المجاور للمسجد الكبير، الذي بناه المرابطون، واستخدمه الموحدون. فقد أسس فيها قصراً، أراد به أن يكون أيضاً قلعة منيعة. وهو القصر الذي يُسمى اليوم بالمشور. واتخذ أمراء بني زيان المشور مقراً رسمياً لإقامتهم، ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم. وفي بيوته يقيم الحشم، ويترل الأمراء الأجانب. وبين أرجائه تُنظم حفلات الاستقبال الكبرى.⁽⁵⁾ وقد أدير سور عظيم على القصر، وما انضم إليه، وهو ما زاد المدينة حُسناً.⁽⁶⁾ ولم يبق من المشور وما كان يضمه من قصور ومساكن، إلا هذا السور وصومعة.⁽⁷⁾

1- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب /قسم الموحدين. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه. بيروت. دار الغرب الإسلامي. الدار البيضاء. دار الثقافة. 1985 : 22,23 .

2- المصدر نفسه. ينظر: تعليق المحققين: 23 هامش (26).

3- العبر: 7/46؛ وينظر: جولييان. المرجع السابق: 1/22.

4- الحسن بن محمد الوزان الفاسي. المعروف بليون الإفريقي. وصف إفريقيا. ترجمه عن الفرنسية. محمد حجي ومحمد الأخضر. ط2. بيروت. دار الغرب الإسلامي 1983 : 2/17. وعبارة الوزان هي: (ستة عشر ألف كانون). والكانون في اللغة هو الموقد أو المصطلى. والكن: البيت أو ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن. ينظر: محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور. لسان العرب. القاهرة. دار الحديث. 2003 : 7/746، 748.

5- جولييان. المرجع السابق: 2/209.

6- التنسي. المصدر السابق: 253.

7- المصدر نفسه: 253. هامش المحقق رقم (712). ويضيف المحقق أيضاً: أن الفرنسيين أدخلوا بعض التعديلات=

ونختتم الكلام عن تآكرارات بشهادة يحيى بن خلدون، الذي وصفها في عهده (ت 780هـ/1378م)، بقوله:

”وهي الآن أكبر وأشهر من الأولى {يقصد أغادير}، والجامع الأعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها، والناس إليها أميل، وبها أشد عناية ويعمر كليهما من البشر ناس أولو حياء ووقار ووفاء بالعهد وعفاف ودين واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدي السلف الصالح رضي الله عنه، غالب تكسيهم الفلاحة وحوك الصوف ...“⁽¹⁾ ويقول في موضع آخر مُقيماً المدينة في عهده: ”بما للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائعة، مما زُخرفت عروشه ونُمِقت غروسه... ويوجد بخارجها الحمائل الألفاف والأدواح... والحدائق الغالب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والزيتون والتين إلى المتزهات الرائعة والملاعب الجالية والمعاهد الكريمة... وتنصب إليها من على جبلها أنهار من ماء غير آسن... ثم ترساه بالمساجد والمدارس والسقايات والقصور وعليه الدور والحمامات... فيسقي بساتينها خارجها ومغارس الشجر ومنابت الحب، فهي التي سحرت الألباب ووجد المادحون فيها المقال...“⁽²⁾

(4)

تعد المنصورة المدينة الثالثة التي تتشكل منها تلمسان، بعد أغادير وتآكرارات. وهي من بناء السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (685-706هـ/1295-1306م)، الذي حاصر تلمسان في سياق سياسة بني مرين في السيطرة على المغرب الأوسط، لمدة طويلة ابتداءً من شهر شعبان سنة 698هـ/1298م، إلى ذي القعدة سنة 706هـ/أيار 1307م. وقد دام هذا الحصار نحو ثمان سنوات، عانى فيها الناس في أغادير وتآكرارات من الجهد والجوع

=على السور من ناحيته العليا. استناداً إلى ما ذكره عنه مارسيه في كتابه عن الآثار العربية في تلمسان W. G et Marçais, Les Monuments arabes de Tlemcen, pp. 131. وعن صومعة أيضاً: ص. 314-317.

1 - بغية الرواد: 1/22.

2 - المصدر نفسه: 1/9 - 10.

ما لم يُسمع بمثله في البلدان.⁽¹⁾ وكانت حملة السلطان يعقوب المريني قد حطت غرب المدينة، ولأجل التأكيد على تصميمه على عدم رفع الحصار ومغادرة المكان، إلا بعد سقوط المدينة، لجأ إلى تأسيس مدينة جديدة في موقع نزوله أسمائها المنصورة.⁽²⁾ ويشير ابن أبي زرع الفاسي،⁽³⁾ إلى أن السلطان المريني أسس مدينة "تلمسان الجديدة"، وبنى سورها سنة 700هـ/1300م، وهو محاصر للقديمة. أما يحيى بن خلدون،⁽⁴⁾ فلا يذكر تاريخاً محدداً للبدء بالبناء، ولكنه يقول، بأن السلطان المريني هاجم تلمسان سنة 689هـ/1298م، وشرع في بناء منصوريته، "فشيّد الأسوار، وزخرف القصور، وأوسع الغروس، وأدار على تلمسان الحصار". ويذكر التنسي،⁽⁵⁾ أن السلطان يوسف استولى على جميع أعمال تلمسان، وبنى عليها مدينة مسورة، شيّد فيها القصور والحمامات والفنادق والأسواق، وسماها "تلمسان الجديدة". ويسمّيها إسماعيل بن الأحمر (ت 807هـ/1404م) أيضاً بـ "تلمسان الجديدة"، ويضيف، أنها أقيمت "بظاهر تلمسان"، وأقام عليها محاصراً إلى أن مات.⁽⁶⁾

أنشأ السلطان يوسف في مكان فساطيط المعسكر قصرأ لسكنائه، ومسجداً لمصلاه. وفي هذا يقول ابن أبي زرع،⁽⁷⁾ وقد ابتدأ أمير المسلمين "ببناء قصره، فبناه في موضع نزوله، حيث ضرب قبابه، ثم بنى جامعاً كبيراً، وأقام فيه الخطبة بازاء قصره. وأمر الناس بالبناء، فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يميناً وشمالاً، فأدار السور على قصره، وعلى الجامع يازائه. وفي سنة اثنتين وسبعمئة، أمر أمير المسلمين يوسف ببناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة، فابتدأ ببنائه في الخامس من شوال من سنة اثنتين وسبعمئة المذكورة". ويضيف، أن السلطان يوسف هذب هذه المدينة "وبنى بها الحمامات العظيمة، والفنادق والمرستانات،

1- ينظر: ابن خلدون، العبر: 7/95-96؛ ويقارن: الطمار، المرجع السابق: 105.

2- ابن خلدون، العبر: 7/95.

3- الأنييس المطرب: 410.

4- بغية الرواد: 1/121.

5- تاريخ بني زيان: 130.

6- أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1962: 50.

7- الأنييس المطرب: 387.

وجامعاً كبيراً للخطبة أقامه على الصهرنج الكبير، وبني به مناراً عظيماً وجعل على رأسه تفافيح من ذهب بسبعمئة دينار⁽¹⁾.

ولم تلبث المنصورة أن توسعت "واستفحل ملك يوسف بن يعقوب مكانه من حصار تلمسان، واتسعت خطة مدينة المنصورة، ووصل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة"⁽²⁾، وقد اتسعت أسواقها، وقصدها السكان من كل فج وصوب، فكثر الرخاء، وحلت فيها الحياة⁽³⁾، حتى أن السلطان يوسف كان يستقبل في قصره بالمنصورة السفارات من إفريقية، ومصر، ومكة، والشام⁽⁴⁾.

إلا أن الرياح لم تبحر بما يشتهي هذا السلطان، فما أن كان نصره قاب قوسين أو أدنى بقرب استسلام تلمسان، التي أهدمت بالحصار، حتى فاجأه القدر، بأن أغتيل في مدينته المنصورة على يد أحد عبيده⁽⁵⁾، في يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة سنة 706هـ/ العاشر من شهر ماي (أيار) 1307م. وقد تولى حفيده أبو ثابت عامر بن يوسف (706-707هـ/ 1306-1307م) من السيطرة على الجيش المريني، الذي أجمع قاداته على ترك حصار تلمسان. فتم الصلح مع الأمير الزياني، أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن (703-707هـ/ 1303-1300م)، ونزل له أبو ثابت عن جميع البلاد التي كان جده قد أخذها منهم⁽⁶⁾، "حاشا تلمسان الجديدة التي اختطها أمير المسلمين يوسف أيام الحصار، فإنه اشترط عليه ألا يدخلها، وأن يقيها على حالها، وأن يتعاهد مساجدها وقصورها بالإصلاح وما تحتاج إليه، ومن أراد الإقامة بها من أهل المغرب فما لأحد عليه من سبيل، فاشترط له ذلك كله"⁽⁷⁾. ولكن بني عبد الواد

1- المصدر نفسه: 387.

2- ابن خلدون. العبر: 7/96.

3- الطمار المرجع السابق: 104.

4- جوليان. المرجع السابق: 2/226.

5- ابن أبي زرع، الأئيس المطرب: 162؛ ابن خلدون. العبر: 7/96.

6- المصدر نفسه: 7/97.

7- ابن أبي زرع. المصدر السابق: 390.

لم يلتزموا بهذا الشرط، لاسيما بعد وفاة أبي ثابت بمرض أودى بحياته، بعد أقل من عام من توليه الحكم، وذلك في سنة 707هـ/1308م. فما أن انسحب المرينيون من المنصورة، حتى قام السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1308-1318م)، بهدمها، وتخريبها في ظرف وجيز، تشفياً من بني مرين.

ولكن لم تمض سوى نحو ثلاثين سنة، حتى تعرضت تلمسان إلى حصار طويل آخر من قبل السلطان أبو الحسن المريني (731-749هـ/1331-1348م)، الذي نزل بموقع المنصورة المهذمة يوم 11 شوال من سنة 735هـ/4 حزيران 1335م. فأحاطت عساكره بالمدينة مدة سنتين، إلى أن اقتحمت تلمسان عنوة في شهر رمضان 737هـ/أبريل (نيسان) 1337م، وعاثوا فيها. وقد استشهد السلطان الزياني أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى (718-737هـ/1318-1337م)، إثر هذا الاقتحام، وانقرض بذلك ملك آل يغمراسن إلى برهة من الدهر⁽¹⁾.

وقد زهد السلطان أبو الحسن في قصر أبي تاشفين، وآثر أن يستقر بالمنصورة المخربة. فأمر بتجديد بنائها، وبدأ الصّاع بتشيد قصر للسلطان، أطلق عليه اسم دار الفتح، أو قصر الفتح، وذلك في عام 745هـ/1344م، كما هو مسجل على تاج عمود عُثِرَ عليه هناك مؤخراً. وساحات هذا القصر وأروقته وغرفته وبركته تذكرنا بقصر الحمراء في غرناطة⁽²⁾.

ويصف محمد بن مرزوق التلمساني (ت 781هـ/1379م)،⁽³⁾ الذي ألف كتاباً في مآثر السلطان أبي الحسن، هذا القصر بقوله: "وأما قصرها ومسكن الإمام رضي الله عنه. فقد رأيت كثيراً ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق، ومباني مصر والشام، والمباني القديمة في الأندلس ومراكش،

1- ابن خلدون. العبر: 111-7/110؛ وينظر: التنسي. المصدر السابق: 146؛ حسن الوزان. المصدر السابق:

2/19.

2- الطمار. المرجع السابق: 136، 137.

3- المسند الصحيح الحسن: 447.

أجمعوا على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره، والحق ما قالوه“. ويضيف أيضاً: ”وأما دار الفتح والبستنة، وما اتصل بهما، والمشور، فما أظن المعمور اشتمل على مثلها...“⁽¹⁾ وهو في هذا شاهد عيان، بقوله: ”دخلت يوماً معه إلى البستنة التي كان قد أنشأها...“⁽²⁾ وأيضاً: ”فلما دخلت ألفتته {يقصد السلطان} في المشور الصغير الذي يُدخل منه لباب دار الفتح“⁽³⁾.

ولدينا شاهد عيان آخر كان يرافق السلطان المريني أبي عنان فارس المتوكل (750-759هـ/1348-1358م) في جولته إلى الزاب، وغيرها من مدن ومناطق المغرب الأوسط، ومنها تلمسان، والمنصورة. فقد زارها في سنة 758هـ/1358م، وأشار إلى دخوله قصر السلطان ”متنعماً بحاسنه التي بهرت، وبدائعه التي نضرت كل عين نظرت... وناهيك من قصر أقصرت له قصور الأرض بالقصور، وتضاءلت له المصانع تضائل الشهب للبدور...“⁽⁴⁾. ولم يبق من هذا القصر اليوم إلا خرائب، يلاحظ منها آثار حوضين متقابلين طول أحدهما خمسة وثلاثون متراً وعرضه تسعة أمتار، مفروشة أرضه وجوانبه بالزليج ومحاط بأعمدة. وهناك أيضاً أثر شوارع كانت تخترق المدينة طولاً وعرضاً مارة بوسطها، وتجمع بين أبواب السور الرئيسة المتقابلة.⁽⁵⁾

وموقع المنصورة لم يكن يبعد عن الأسوار الغربية لتلمسان إلا بنحو ألفي متر، وأسوارهما متقابلة، والباب الغربي لتلمسان يكاد يكون على محور مع الباب الشرقي للمنصورة.⁽⁶⁾ وهي مستطيلة الشكل، تبلغ 1300 متر طولاً و750 متر عرضاً، وبأركانها أبراج لا منفذ لها، وعرض جدارها أكثر من متر، وفي شمالها ستة أبواب. ويرى أحد الباحثين المحدثين،⁽⁷⁾ ”أن عدد أبوابها كان كذلك في الجانب

1- المصدر نفسه: 447.

2- المصدر نفسه: 491.

3- المصدر نفسه: 491.

4- إبراهيم بن محمد بن الحاج النميري الغرناطي. فيض العباب وإفاضة قَدَاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. تحقيق: محمد ابن شقرون. الرباط، 1984: 278.

5- الطمار. المرجع السابق: 136.

6- لعرج. المرجع السابق: 55.

7- حركات. المغرب عبر التاريخ: 2/132.

المقابل، وإلى أواخر القرن التاسع عشر كان لا يزال معظمها قائماً وخاصة المسجد⁽¹⁾. وتبلغ أطوال المسجد (85x60م)، وتصميمه العام شبيه بعض الشيء بجامع حسان، الذي بناه الموحدون في الرباط. حيث زوّدت أسواره بثلاثة عشر باباً، موزعة بالتناظر، وباب واحد رئيسي يخترق برج المئذنة، يتقدمه درج واسع. وكان الحرم مؤلفاً من ثلاثة عشرة بلاطة عمودية على القبلة، وثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وفي وسطها حيز مربع كان مسقوفاً بقبة من الخشب، كما هو مرجح⁽²⁾. وصحن المسجد محاط برواق مؤلف من ثلاث بلاطات هي امتداد لبلاطات الحرم. ويلاحظ أن برج المئذنة الذي يبرز كلياً عن أسوار المسجد، قد تهدم نصفه الداخلي من الأعلى إلى الأسفل، وبقي النصف الآخر كاملاً مع باب المئذنة المفتوح داخله، وهو على شكل قنطرة غنية بالزخارف. ويعتمد عقد الباب على عمودين من الرخام، لهما تاجان عليهما نقوش دقيقة ورائعة من الطراز المغربي والأندلسي⁽³⁾.

ولم يبق من هذا المسجد إلا جزء من قاعدة محرابه، وجانب من أسواره ومئذنته، التي يقارب ارتفاعها الأربعين متراً، مبنية بالحجارة، وتعلو الباب الرئيسي للمسجد. وهي على شاكلة المآذن الموحدية من حيث الارتفاع والعرض، وزخارف الجدران، وأما كانت تحتوي على نواة مركزية خاوية مكونة من قاعات موضوعة بعضها فوق بعض، يدور حولها منحدر. وقد تهدمت القاعات، ولم يبق إلا آثار طفيفة للمنحدر. ولكن حافظت المئذنة على زخرفتها التي تعد بحق من روائع النحت الحجاري الكبرى⁽⁴⁾. وكان بأعلى هذه المئذنة، وكما أورد ابن أبي زرع⁽⁵⁾، "تفاح من ذهب بسبعمئة دينار".

وقد اهتم السلطان أبو الحسن بهذا المسجد، فحاول ترميمه والزيادة فيه،

1- الريحاوي. المرجع السابق: 2/415.

2- المرجع نفسه: 2/415- 416 : و ينظر أيضاً :

John.D.Hoag, Islamic Architecture, New York, Harry N.Abrams, Inc. Publishers, 1977 : 117.

3- ينظر: رشيد بورويبة، " الطراز الموحدى ومشتقاته : الحفصي المريني الزياني والنصري ". نشر ضمن كتاب:

الفن العربي الإسلامي ج 2 (العمارة)، تونس. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1995 : 2/238.

4- الأنييس المطرب : 387.

لكنه لم يتمكن من إكماله، باستثناء الصحن المربع الشكل.⁽¹⁾ ويصف لنا ابن مرزوق هذا الجامع، كما كان في عصره، بقوله:⁽²⁾

”وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون وأجمع المتجولون على أنهم لم يروا له ثانياً... ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها... وكانت على الباب الجوفي منه، ولها ممران يُطلع فيهما إلى أعلاها. وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الإحكام في كل جانب. ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح، وهو من حديد يشبه أن يكون صارياً. وأما الثريا فكان عملها على يدي، وأنا الذي رسمت تأريخها في أسفلها بخطي على ما هي عليه الآن في جامع تلمسان، وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها... وأما المنبر، فقد أجمع الصنّاع يومئذ على أنه لم يعمل مثله في المعمور... إذا رأيته، رأيت العجب فאלله حسيب من تسبب في خراب ذلك كله فقد محاً رسوماً يفخر بها أهل الإسلام ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام.“

حافظت مدينة المنصورة على رونقها وعلو شأنها في عهد السلطان أبي الحسن، وقد أنشأ فيها قبة العدل، التي كان يجلس فيها للنظر في مظالم الناس، أو يعين من يثق به من كبار أهل حضرته من الوزراء والفقهاء لذلك.⁽³⁾ كما كان يجلس في الميدان، فيعرض أمامه الجنود، ويلعب بين يديه الفرسان، ليميز الفارس عن غيره، ويمثل أمامه المشتكون، وتُعرض عليه الهدايا وما يُحمل من الأموال، ويقابل فيه كبار السفراء، وأبناء الملوك إذا وفدوا عليه.⁽⁴⁾

ولدينا رواية شاهد عيان زار هذه المدينة في سنة 736هـ/1335م، وهو الرحالة خالد بن عيسى البلوي، الذي وصلها في الثاني عشر من جمادى الأولى لهذه السنة قادماً من الأندلس. وكان السلطان أبو الحسن محاصراً لتلمسان، ومقيماً بالمنصورة. فترل البلوي ”بالمحلة المنصورة“، التي يسميها ”الحاضرة للمدينة

1- جوليان. المرجع السابق: 2/239.
2- المسند الصحيح الحسن: 402-405.
3- المصدر نفسه: 173.
4- المصدر نفسه: 137.

المذكورة، محلة السلطان العادل... أبي الحسن بن السلطان الفاضل... أبي سعيد يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني...⁽¹⁾ ويقول في وصفها: "وجلنا في المحلة، وهي روض يشمر خيلاً وأعنةً، وبحر يزخر قنا وأسنةً، وذوائب الأعلام تخفق، وألسنة عذاباتها تكاد بالنصر تنطق، والأحوال قد استقامت والأخبية على القاعدين فيها قد نامت. وهي مبيضة كسقوط الثلج، مصطفة كبيوت الشطرنج. وقد أشرق الجو ياشراق الخمائل والنبات، وأشرف على مدينة أهدقت بها الأزهار والأنهار من جميع الجهات..."⁽²⁾

ولكن مدينة المنصورة، حالها حال تلمسان بشكل عام، عانت من الحروب المتكررة بين المرينيين وبني عبد الواد. وقد ظلت لمدة اثني عشر عاماً مركزاً للحكومة المرينية، بعد أن استولى عليها السلطان أبو الحسن سنة 737هـ/1337م. لكن بني عبد الواد استطاعوا أن يعودوا إلى تلمسان سنة 737هـ/1337م، واستطاع السلطان أبو عنان المريني أن يحتلها مرة أخرى سنة 53هـ/1352م.⁽³⁾ ولكن بني عبد الواد استطاعوا أن يسيطروا على المدينة مرة أخرى، ودخلوها من أغادير، وأخرجوا منها الأمير محمد بن أبي عنان سنة 760هـ/1359م، وبايعوا ملكهم أبي هو موسى الثاني.⁽⁴⁾ (760 - 791هـ/1359 - 1389م) ولكن محاولات المرينيين تكررت للهجوم على تلمسان طيلة ما تبقى من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، الأمر الذي أدى إلى حصول الكثير من الاضطرابات وعدم الاستقرار وانعدام الأمن فيها. وقد نالت مدينة المنصورة نصيبها من تلك الأوضاع المأساوية، وامتدت إليها أيادي التخريب الذي قام به الإنسان، فضلاً عن عوامل الطبيعة، فأصبحت كما قال عنها يحيى بن خلدون،⁽⁵⁾ "بلقعا"، أي أرضاً قفراً لا شيء فيها.⁽⁶⁾ واشتهر موقعها في عهده بـ "رحا الريح من

1- خالد بن عيسى البلوي. تاج المرفق في خلية علماء المشرق. تحقيق. الحسن السائح. نشر: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات. المحمدية. مطبعة فضالة (د.ت) : 2/149 .

2- المصدر نفسه: 2/150 .

3- ابن خلدون. العبر: 7/121: التنسي. المصدر السابق: 154- 155 .

4- ابن خلدون. العبر: 7/123: التنسي. المصدر السابق: 159 .

5- بغية الرواد: 1/121 .

6- ينظر: ابن منظور. لسان العرب. مادة: بلقع. 501 - 1/500 .

ظاهر العلية".⁽¹⁾ أما التنسي المتوفى سنة 899هـ/1494م، فيشير في كتابه نظم الدرر والعقيان، الذي يتوقف فيه إلى سنة 868هـ/1464م، بأنها أصبحت محرثاً في عهده،⁽²⁾ وذلك بعد نحو مئة وثلاثين سنة من بنائها في عهد أبي الحسن المريني.⁽³⁾ وما زالت آثار المنصورة على بعد كيلومترين غربي تلمسان، وهناك أيضاً إلى جانب الأطلال قرية عصرية سُميت بالمنصورة.⁽⁴⁾ وقد أشار إلى هذه الأطلال أيضاً، عبد الوهاب بن منصور، محقق كتاب جني زهرة الآس، بقوله: "وهي اليوم قرية متواضعة بما البساتين الغنية والمزارع الخصبة، تواجه صومعة مسجدتها وأبراج أسوارها أنظار الذاهبين من تلمسان إلى المغرب أو الواردين منه عليها بطريق السيارات أو القطار".⁽⁵⁾

1- بغية الرواد : 1/121 .

2- التنسي . المصدر السابق : 146 يقول : "هي الآن محرث".

3- المصدر نفسه : 146 . هامش المحقق رقم (216) بالاستناد إلى :

G. et .W. Marçais, Les Monuments arabes de Tlemcen, pp. 192- 201 .

4- التنسي . المصدر السابق : 130 . هامش المحقق محمود بو عباد رقم (107).

5- ينظر: الجزنائي. المصدر السابق : 62، هامش المحقق رقم (126).

جريدة المصادر والمراجع

أ- المصادر الأولية:

- 1- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.
- 2- ابن الأثير، إسماعيل بن الأثير، روضة النسر في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1962.
- 3- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق حققه ونقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، باريس، 1983.
- 4- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857.
- 5- البلوي، خالد بن عيسى، تاج المشرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق، الحسن السائح، نش، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات، المحمدية، مطبعة فضالة (د.ت).
- 6- التنسي، محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من: نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق، محمود بو عياد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- 7- الجزنائي، علي الجزنائي، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.
- 8- ابن الحاج، إبراهيم بن محمد بن الحاج النميري الغرناطي، فيض العباب وإفاضة قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق، محمد ابن شقرون، الرباط، 1984.
- 9- الحميري، محمد بن عبد الله، السروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975.
- 10- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصبي، كتاب صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979.
- 11- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، نشر، دي غوية، ليدن، 1889.
- 12- ابن الخطيب، لسن الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب السلمي، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق، محمد كمال شبانة، المحمدية، مطبعة فضالة، 1976.
- 13- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979.
- 14- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى بن محمد، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، مطبعة بيزر فونطانا الشرقية، 1903-1904.
- 15- الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكحي، تونس، نشر رفيع السقطي، 1968.
- 16- ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.
- 17- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية، تحقيق، محمد حاج صادق، القاهرة، (د.ت).
- 18- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غوية، ليدن، مطبعة بريل 1879-1901.
- 19- العبدري، محمد العبدري البننسي، الرحلة المغربية، تحقيق، أحمد بن جدو، الجزائر، نشر، كلية الآداب الجزائرية (د.ت).
- 20- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج.س. كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت، ج. 1.
- 21- -----، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

- 22- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق، بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 .
 - 23- مجهول من القرن السادس للهجرة، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986 .
 - 24- مجهول من القرن الثامن للهجرة، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979 .
 - 25- المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر، دي غوية، لندن، مطبعة بريل، 1906 .
 - 26- المقرئ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1986 .
 - 27- ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، 2003 .
 - 28- الوزان، الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقية، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 .
 - 29- الممداي، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق، كتاب البلدان، تحقيق، يوسف الهادي، ط2، بيروت، عالم الكتب، 2009 .
 - 30- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977 .
 - 31- البعقوني، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، كتاب البلدان، نشره، دي غوية مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته، لندن، مطبعة بريل، 1892 .
- ب - المراجع الثانوية:**
- 32- بورويبة، رشيد، "الطراز الموحد ومشتقاته: الحفصي المريني الزياني والنصري"، نشر ضمن كتاب: الفن العربي الإسلامي، ج2 (العمارة)، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1995 .
 - 33- جوليان، شارل أندريه، تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بوسلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985 .
 - 34- الجليلي، تاريخ الجزائر العام، بيروت، دار الثقافة، 1980 .
 - 35- حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984 .
 - 36- الريحاوي، عبد القادر، قمم عالية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 2000 .
 - 37- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982 .
 - 38- طه، عبد الواحد ذنون، ابن عذاري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004 .
 - 39- الطمار، محمد، تلمسان عبر العصور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007 .
 - 40- العربي، إسماعيل، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 .
 - 41- لعرج، عبد العزيز، "مجموعة المنشآت العمرانية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد تلمسان"، مجلة دراسات تراثية/ مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، الجزائر، معهد الآثار، العدد 2، السنة 2008 .
 - 42- الهرفي، سلامة محمد سلمان، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين/ دراسة سياسية وحضارية، بيروت، دار الندوة الجديد، 1985 .
